قضايا وآراء

أخبار الخليج

العدد (17710) - السنة الحادية والخمسون - الجمعة 7 ربيع الآخر 1448هـ - 18 سبتمبر 2026م

خيارات ترامب قبل معركة التجديد النصفي للكونجرس

تشكل انتخابات التجديد النصفي للكونجرس الأمريكي يوم 4 نوفمبر المقبل اختبارًا صعبًا على الرئيس ترامب اجتيازه بنجاح، وإلا فسيواجه تحديات كبرى في المدّة المتبقية من فترة ولايته الثانية. لا تقتصر هذه التحدّيات على احتمال تحوله إلى «بطّة عرجاء» فحسب، وإنما قد تتفاقم أيضًا لتشمل البدء في إجراءات محاكمته تمهيدًا لعزله من منصبه، وهو احتمال وارد في حال ما أسفرت نتائج هذه الانتخابات عن حصول الحزب الديمقراطي على أغلبية مريحة، تتيح له السيطرة على الكونجرس بمجلسيه، الشيوخ والنواب. ولأن استطلاعات الرأي في الأسابيع القليلة الماضية تفيد بأن شعبية ترامب آخذة في التدهور منذ شهور طويلة، ووصلت إلى مستوىً من التدنّي غير مسبوق، وتؤكّد أن أحد أهم أسباب هذا التدهور اقتناع قطاعات واسعة من الرأي العام الأمريكي بأن ترامب زجّ الولايات المتحدة في حرب اختيار مكلفة، تسبّبت في زيادة الأعباء المعيشية على أبناء الطبقات الفقيرة والمتوسطة، وأن نتنياهو نجح في استدراجه إلى هذه الحرب التي تُخاض تحت شعارٍ «إسرائيل أولًا» وليس «أمريكا أولًا». لذا من الطبيعي أن تثور تساؤلات ملحّة بشأن ما إذا كان بمقدور ترامب التغلب على هذه التحدّيات، وطبيعة الخيارات المتاحة أمامه حتى إجراء انتخابات التجديد النصفي.

تبدو جميع هذه الخيارات مرتبطة عضوياً بالقدرة على إنهاء الحرب الأمريكية الإيرانية التي لا تزال مشتعلة وبطريقة تؤدّي إلى خفض سعر البنزين بالنسبة إلى المواطن الأمريكي، وهو ما لن يتحقّق إلا إذا جرى فتح مضيق هرمز أمام حركة التجارة العالمية، لأن إغلاقه تسبّب في مشكلات ضخمة للاقتصاد العالمي ككل، بما فيه الاقتصاد الأمريكي نفسه. ولأنها خيارات محدودة، يبدو أن ترامب لن يتمكّن من اجتياز اختبار الانتخابات النصفية بنجاح، فإنهاء الحرب على إيران لا يتم إلا بأحد وسيلتين. الأولى: حسم عسكري يفضي إلى انتصار أمريكي كامل واستسلام إيراني تام، وهو خيارٌ جُرّب وفشل، ولا مؤشّرات تؤكد أنه بات قابلاً للتحقيق قبل انتخابات التجديد النصفي. والثانية: اتفاق سياسي يفضي إلى حل وسط يمكن لكل من الطرفين المتصارعين تسويقه

بقلم:

د. حسن نافعة ○

إنجازاً، وهو خيار جُرّب من قبل وفشل، خصوصا عقب التوقيع على «مذكرة التفاهم».

في سياق كهذا، يبدو واضحاً أنه لم يعد أمام ترامب سوى كسب الوقت، والعمل على تأجيل الحسم في هذا الموضوع الشائك إلى ما بعد الانتخابات، مع الحرص، في الوقت نفسه، على استغلال الوقت المتبقي بطريقة تسمح باجتياز الاختبار الانتخابي بأقل الخسائر الممكنة، عبر ترويج سرديةٍ تدّعي أن الأسطول الأمريكي يسيطر على مضيق هرمز، وأنه مفتوح أمام التجارة العالمية، وتعبره يومياً عشرات الناقلات المحملة بالملايين من براميل النفط، وأن الحصار البحري المضروب حول الموانئ الإيرانية، بالتوازي مع الإجراءات الجديدة التي تستهدف خنق الاقتصاد الإيراني، سوف يؤتيان أكلهما في القريب العاجل، ما سيؤدّي إلى واحد من احتمالين. الأول: سقوط النظام الإيراني ثمرة ناضجة وقيام نظام إيراني بديل (على النمط الفنزويلي) يقبل الدوران في الفلك الأمريكي. والثاني: استسلام النظام الإيراني الحالي لجميع المطالب والشروط الأمريكية بسبب عدم القدرة على تحمل الحصار والعقوبات، وعندها يصبح الإعلان رسمياً عن الانتصار الأمريكي ممكناً. ولكن هل سيصدّق الشعب الأمريكي هذه السردية إلى درجة تسمح بترجمتها إلى أصوات توضع في صناديق الاقتراع، وبالتالي، تمكّن الحزب الجمهوري من الاحتفاظ بأغلبية المقاعد في الكونجرس، بمجلسيه، وتساعد ترامب على الخروج من مأزقه الراهن؟ أشك كثيراً لأن الشعب تمرّس على كل سرديات ترامب واكتشف زيفها.

يدرك الشعب الأمريكي أن ترامب جرّب الخيار العسكري عدة مرات وفشل، ورغم ذلك أحاطه بسردية زائفة. ففي يونيو عام 2025، قرّر ترامب أن يشترك مع نتنياهو في حرب استغرقت 11 يوماً، واستهدفت تدمير المنشآت النووية الإيرانية، وما إن توقّفت، حتى أعلن ترامب أن الهدف تحقّق، وأن جميع المنشآت النووية الإيرانية دمّرت بالكامل. ومن ثمّ لن يكون بمقدور إيران إعادة إحياء برنامجها النووي إلا بعد سنوات طويلة. ثم لم يمض وقت طويل، حتى تبين أن إيران تمكّنت من إنقاذ اليورانيوم المخصب بنسبة 60%، وأن عدداً غير محدّد من أجهزة التخصيب نجا من القصف، ما يعني أنها لا تزال دولة «عتبة نووية»، وقادرة على تصنيع السلاح النووي في أي وقت تقرّره. وفي 28 فبراير 2026، قرّر ترامب أن يشترك مع نتنياهو في حرب ثانية، استغرقت 39 يوماً، واستهدفت إسقاط النظام الإيراني هذه المرّة علناً. غير أن هذه الحرب فشلت في إسقاطه، رغم أنها أطاحت بمعظم قيادات الصف الأول، بمن فيهم المرشد الأعلى علي خامنئي، وما زال صامداً وقادراً على مواصلة القتال. ثم عاد ترامب واستأنف ضرباته العسكرية على إيران بشكل متقطع، لكنه كان وحيداً هذه المرّة، بعد أن استبعد نتنياهو الذي ورّطه. ولأنها لم تسفر عن أي إنجاز سياسي ملموس، لجأ ترامب إلى وسائل أخرى، كإحكام الحصار البحري وتشديد العقوبات الاقتصادية، في خطوة فسّرها بعضهم بأنها تعني استبعاد خيار الحرب الشاملة، في المرحلة الراهنة على الأقل، مع الحرص، في الوقت نفسه، على استمرار الضربات العسكرية المنتقاة من وقت إلى آخر، لإثبات أنه ما زال يمسك بزمام المبادرة في الصراع مع إيران، ولن يتخلى عن هدفه في إسقاط نظامها أو إجباره على الاستسلام ورفع الراية البيضاء، بصرف النظر عن الوسيلة المستخدمة.

ويدرك الشعب الأمريكي أيضاً أن ترامب جرّب الخيار الدبلوماسي مرّات. حين دخل في جولات مختلفة من المفاوضات غير المباشرة، غير أنه اتخذ منه وسيلة للخداع وليس للبحث عن حلول وسط، فعشية حرب الـ11 يوماً، شارك في جولة مفاوضات غير مباشرة، وبينما كان الوسيط العُماني يعرب عن تفاؤله بما أحرز فيها من تقدّم، بدأت القنابل الأمريكية والإسرائيلية تتساقط فوق المنشآت النووية الإيرانية.

ثم تكرّر الخداع قبيل الحرب الشاملة التي استهدفت إسقاط النظام الإيراني، حيث سبقتها أيضاً جولة مفاوضات غير مباشرة توسطت فيها أطراف عدة. ثم تكرّر الخداع، بطريقة مختلفة، فلم يقطع ترامب المفاوضات التي أعقبت فشل «حرب إسقاط النظام» لكي يشنّ حرباً جديدة، مثل ما حدث في جولات المفاوضات السابقة، بل استمر فيها إلى أن جرى التوصل إلى «مذكرة تفاهم» وقّع عليها الرئيسان الأمريكي والإيراني. وفي هذه اللحظة تحديداً، اكتشف العالم كله أن ترامب في مأزق، وأنه قدّم في هذه المذكرة تنازلات كثيرة للجانب الإيراني. وحين أدرك أن التزامه بكل بنودها سيضعف موقفه الداخلي، خصوصاً بعد الانتقادات العنيفة التي وجهت إليها من جانب أوساط أمريكية عديدة، لم يعلن ترامب انسحابه منها مثل ما فعل مع اتفاق 2015، لكنه حاول الالتفاف عليها عبر فتح مسار بديل لمعالجة الأزمة اللبنانية، من ناحية، بعكس ما نصّ عليه البند الأول من مذكرة التفاهم، وأيضاً عبر فتح ممرّ بحريٍّ داخل مضيق هرمز بالقرب من الشواطئ العُمانية، من ناحية أخرى، وذلك لحرمان إيران من أهم ورقة ضغط تمسك بها.

نخلص مما تقدم إلى أن الصراع الأمريكي الإيراني سيستمر إلى أن يقتنع ترامب بأن التوصل إلى حل وسط هو البديل الوحيد الممكن، وهو ما لا مؤشّرات على قرب حدوثه.

ومن الواضح أن الفترة التي تسبق انتخابات التجديد النصفي لن تكون هادئة، وبالتالي لن يكون بمقدور ترامب ضبط تفاعلاتها بطريقة تضمن له الفوز في هذه الانتخابات. لذا يبدو أن الخيار العقلاني الوحيد المتاح أمامه هو العودة إلى «مذكّرة التفاهم» والالتزام بما ورد في بنودها على نحو يضمن وقف الحرب نهائياً على جميع الجبهات. وبالتالي، تحويل مفاوضات الحل النهائي إلى فرصة للتوصل إلى سلام شامل، يضمن الأمن لجميع شعوب المنطقة، بما في ذلك أمن الشعب الفلسطيني.

○ أستاذ العلوم السياسية في جامعة القاهرة

الحروب ودروس من الجنرال ديجول

أقرأ هذه الأيام كتاب جوليان جاكسون الضخم عن شارل ديجول الصادر بالعربية في جزءين عن مشروع «كلمة» في أبوظبي. وهي مؤسسة ثقافية ناجحة، وقد أرسله لي مشكوراً الدكتور أنور قرقاش. «سيرة شارل ديجول – فكرة محددة عن فرنسا» هي سيرة رجل، لكنها في الحقيقة سيرة فرنسا في أكثر سنواتها اضطراباً، ومن خلالها يمر القارئ على حربين عالميتين، الأولى والثانية، احتلال ومقاومة، وسقوط إمبراطوريات، وصعود أخرى، ثم محاولة الإجابة عن ذلك السؤال القديم المتجدد: ماذا تتعلم الشعوب من كوارثها؟

بقلم:

د. محمد الرميحي ○

يقول المؤلف إن اسم ديجول في فرنسا اليوم يكاد أن يعلو على أسماء تاريخية كبرى، حتى نابليون بونابرت وهو من هو في التاريخ الفرنسي. ويستطرد المؤلف بالقول: من الصعب أن تمر بمدينة أو قرية فرنسية من دون أن تجد شارعاً أو ساحة أو معلماً يحمل اسم شارل ديجول. والمفارقة أن الرجل لم يكن في حياته موضع إجماع. كان له خصوم، وبعضهم كرهه بشدة، أما مناصروه فقد كان بطلاً في رأيهم، إلا أن الزمن فعل فعله، وبقي من ديجول ما هو أكبر من الخلاف على شخصه: بقيت مدرسة سياسية وفكرية تعبّر عن الدولة وعن فرنسا.

شارك ديجول شابا في الحرب العالمية الأولى، وجرح أكثر من مرة. وفي معركة فردان أبيدت وحدته تقريباً حتى ظُنّ أنه قتل وتم نعيه، وتبين لاحقاً أنه وقع في الأسر الألماني. حاول الهرب من سجنه مراراً، ولم يساعده طوله الفارع على التخفي. وتروي سيرته أنه كان أسيراً صعباً، لا يريد التسليم بفكرة أن الحرب انتهت بالنسبة إليه لمجرد وقوعه في الأسر. بل عندما وصلت القوتان المتناحرتان إلى إطلاق بعض الأسرى من الجانبين، كان على من سيطلقون توقيع تعهد ألا يعودوا إلى الحرب، رفض ديغول التوقيع وفضل الأسر!

هذه التفاصيل الصغيرة تقول شيئاً عن الرجل الذي سيظهر بعد ذلك بسنوات في لحظة أشد قسوة.

في يونيو 1940 كانت فرنسا قد هُزمت أمام ألمانيا، والدولة تتهاوى والجيش يتراجع. غادر ديجول إلى لندن وأطلق نداءه الشهير إلى الفرنسيين. الفكرة التي حملها ذلك النداء كانت بسيطة في ظاهرها وعميقة في معناها: لقد هُزمنا لأن خصمنا امتلك وسائل لم نمتلكها، وسوف نمتلكها، وسوف تستمر الحرب، ولن تكون فرنسا وحدها.

كان يرى ما وراء الهزيمة الآنية. فهم أن ميزان القوى يمكن أن يتغير، وأن بناء تحالف واسع قادر على تغيير النتيجة. وهذا درس في السياسة كثيراً ما ننساه: الهزيمة ليست قدراً، كما أن الحماسة وحدها لا تصنع نصراً. عليك أن تعرف لماذا هُزمت، وأن تملك الوسائل التي افتقدتها.

عاد ديجول إلى فرنسا منتصراً، لكن السياسة لم تكن سهلة معه ولا كان هو سهلاً معها. خرج من الحكم، ثم أعادته أزمة الجزائر في عام 1958. توقع كثيرون، وبخاصة من العسكريين الفرنسيين في الجزائر، أنه جاء لينقذ «الجزائر الفرنسية». لكنه انتهى إلى نتيجة مختلفة: استمرار السيطرة على الجزائر لم يعد ممكناً ولا يخدم مستقبل فرنسا.

كانت الصدمة كبيرة. تمرد عسكريون، وظهرت منظمة عسكرية سرية، ووصل الأمر إلى تهديد الدولة نفسها. لكن ديجول مضى في الطريق الذي اعتقد أنه يخدم فرنسا، وانتهت حرب الجزائر بالاستقلال عام 1962.

وهنا أيضاً تظهر واحدة من صفات رجل الدولة: الفرق بين ما يريده الجمهور في لحظة معينة، وما يراه السياسي لمصلحة بلده على المدى الأبعد. ديغول لم يكن منزهاً عن الخطأ، ولا يحتاج التاريخ إلى صناعة قديسين، لكنه كان مستعداً لدفع ثمن قراره.

ثم جاء خروجه من السلطة بالطريقة نفسها تقريباً. طُرح في عام 1969 استفتاءً على إصلاحات سياسية وربط بقاؤه بنتيجةٍ وازنة. لم يخسر الاستفتاء ولكن النتيجة كانت هامشية، فاستقال. لم يبحث عن مخرج دستوري، ولم يقل إن الشعب لم يفهم السؤال، ولم يطلب تمديداً حتى تتحسن الظروف. جمع أوراقه وغادر. إلا أن أكثر ما شدّني في الكتاب ليس ديجول وحده. إنها تلك الصفحات التي تصف أوروبا وهي تأكل أبناءها بشراسة في حربين عالميتين. أعداد هائلة من القتلى والجرحى، مدن مدمرة، عائلات اختفت، واقتصادات انهارت. وفي الحرب الأولى بخاصة كان الصراع الفرنسي–الألماني طاحونة بشرية، يصعب علينا اليوم تصور حجمها. بعد الحرب الأولى سقطت إمبراطوريات، وبعد الثانية لحقت بها إمبراطوريات أخرى. تغير العالم كله تقريباً. والأهم أن الأوروبيين، بعد كل ذلك الدم، بدأوا يتعلمون شيئاً فشيئاً أن إدارة الاختلاف أقل تكلفة من إدارة الحروب. لم يصبحوا ملائكة، ولم تختفِ مصالح الدول، ولا صراعاتها، لكنهم طوروا مؤسساتهم من الداخل، ووسعوا المشاركة السياسية، وبنوا آليات لتداول السلطة، وأيضاً لحل الخلافات، ثم أخذوا يبحثون عن صيغ تجعل الحرب بينهم أصعب من السابق. وتحولت أوروبا المتحاربة الى الاتحاد الأوربي، وهنا أخذني الكتاب بعيداً عن ديجول إلى منطقتنا. نحن أيضاً مررنا بحروب كثيرة، ولا نزال نعيش آثار حروب جديدة، دول تمزقت، ومدن دمرت، وملايين نزحوا أو هاجروا، وثروات هائلة أنفقت في الصراع. السؤال ليس من انتصر ومن هزم. السؤال الأصعب: ماذا تعلمنا من هذا الصراع الممتد؟

الحرب ليست مدرسة جيدة، لكنها مدرسة باهظة الثمن. الأوربيون دفعوا الرسوم كاملة، ثم حاولوا ألا يدفعوها مرة أخرى. أما نحن، فأخشى أننا في كل مرة ندفع الرسوم، ثم نعيد دراسة المقرر نفسه. ربما تكون هذه أهم فكرة خرجت بها حتى الآن من صحبة ديجول: الأمم لا تتقدم لأنها لا تخطئ، بل لأنها تتعلم من أخطائها. أما تكرار الخطأ، فليس قدرا.

○ أستاذ علم الاجتماع السياسي في جامعة الكويت

ما وراء انعقاد قمة الفضاء الأوروبية

كشفت الحرب الروسية – الأوكرانية التي يزيد عمرها على الأربعة أعوام، ضعف أوروبا الغربية عسكريا وعدم امتلاكها بنية فضائية خاصة، تمكنها من إدارة الحروب باستقلالية تامة دون اللجوء إلى الحلفاء وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية.

أوكرانيا التي استنجدت بالعالم الغربي، حصلت على مساعدات في تقنيات الذكاء الاصطناعي والفضاء من شركة أمريكية خاصة اسمها «ستارلينك» صاحبها الملياردير إيلون ماسك، وتتركز جهودها في توفير شبكة اتصالات فضائية حين تتعرض شبكات الاتصالات الأرضية ومحطات الكهرباء للتدمير أو التشويش.

هذا الاعتماد على شركة خاصة وأمريكية فتح النقاش بين صناع القرار الأوروبي على أهمية تطوير منظومة اتصالات فضائية أوروبية مستقلة وغير مرهونة لأي دولة خارج الفضاء الأوروبي، ومن هنا جاءت قمة الفضاء الدولية التي دعا إليها الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون حتى تدفع باتجاه تمكين أوروبا فضائياً.

القمة التي عقدت، الأسبوع الماضي، في باريس، ركزت على حشد الجهود الأوروبية لبناء وإطلاق أقمار صناعية في مدارات بعيدة وأخرى منخفضة، وإرسال رواد فضاء أوروبيين، والاستثمار في شركات الفضاء الأوروبية لتمكينها من التصنيع المتطور في القطاع الفضائي.

مشكلة أوروبا أنها تعتمد على الولايات المتحدة الأمريكية في الجوانب العسكرية بما يتضمن أنظمة الدفاع والرادارات المتقدمة وشبكة الاتصالات الفضائية، وهي لا تريد أن تبقى أسيرة للقرار الأمريكي، خصوصاً مع تعالي الشكاوى بشأن طبيعة العلاقة والشراكة بين الطرفين في عهد الرئيس الأمريكي ترامب.

ماكرون كان يطمح منذ سنوات للابتعاد شيئاً

بقلم: هاني عوكل ○

فشيئاً عن الاعتماد على واشنطن، وكان يرى أن على أوروبا أن تبذل الجهد الأكبر لتأمين نفسها سياسياً وعسكرياً، وتشكيل جيش أوروبي موحد يمكنه التعامل مع مختلف الأزمات بما فيها الأزمة الأوكرانية الحالية.

كذلك كان ماكرون حريصاً أن تكون هناك بصمة أوروبية حاضرة في القطاع الفضائي، لأن الحروب الحالية لم تعد تقليدية كما كانت في السابق، والمشكلة بنظر الرئيس الفرنسي أن الولايات المتحدة الأمريكية والصين وروسيا قادرة على التعامل مع تحديات الحروب الذكية عكس الجاهزية الأوروبية.

ما من شك أن الولايات المتحدة الأمريكية هي المسيطر الرئيس في الفضاء بأكثر من 11 ألف قمر صناعي معظمها تعود إلى شركة «ستارلينك»، وبصرف النظر عن الحجم الهائل في عدد الأقمار الصناعية، إلا أن واشنطن تتفوق في تنوع طبيعة عمل الأقمار التي تخدم قطاعات عسكرية وتجارية وخلاف ذلك.

أوروبا أيضاً تملك أقماراً صناعية لكن عددها قليل جداً مقارنةً بالأقمار الأمريكية، لكن التحدي الأبرز في عدم وجود كوكبات متكاملة ومستقلة في الاتصالات العسكرية والإنترنت الفضائي والمراقبة والإطلاق، ولذلك أوروبا متأخرة فضائياً وغير قادرة على الدخول في حرب حديثة وطويلة دون الدعم الأمريكي.

أيضاً تبرز مسألة غاية في الأهمية تتعلق بالانقسام الأوروبي تجاه الأمن القومي وتفاوت القدرات العسكرية. على سبيل المثال، دولة مثل فرنسا وألمانيا تمتلكان المعرفة والقدرة في التصنيع الفضائي، بينما هناك دول أخرى ضعيفة عسكرياً واقتصادياً وتجد أولوياتها مختلفة.

التحدي المهم في هذا الإطار يتعلق بتوسيع نطاق التصنيع حتى يشمل دولاً أوروبية أخرى، بحيث يمكن لفرنسا مثلاً صناعة الأقمار الصناعية، وألمانيا تركز على الصواريخ التي تنقل الأقمار إلى الفضاء، وإيطاليا تتخصص في الرادارات الفضائية وهكذا دواليك.

اللافت للنظر أيضاً أن 120 دولة وجهة شاركت في هذه القمة، في حين قاطعتها شركات أمريكية حكومية وخاصة، ربما لأنها ترفض التوجه الأوروبي نحو الاستقلالية الفضائية، وكذلك لا ترغب في نقل المعرفة أو الدخول في اتفاقيات مشتركة تصب في مصلحة الشركات الأوروبية.

في المحصلة، قد تكون هذه القمة خطوة إلى الأمام نحو استقلالية أكبر لأوروبا في القطاع الفضائي، لكنها بالتأكيد ستواجه تحديات وستكون مرهونة لعامل الوقت، لأن ماكرون المهتم جداً بالاستقلالية الأوروبية في المجال العسكري عموماً، سيغادر منصبه بعد سبعة أشهر من الآن.

أوروبا لديها قدرات ممتازة في القطاع الفضائي لكنها موزعة بين الدول، وهي بحاجة أولاً إلى توحيد جهودها والتكامل لتطوير قدراتها العسكرية بالعموم، ومن ثم الخروج التدريجي من دائرة التبعية الأمريكية، وثانياً تحتاج إلى تخصيص أموال سنوية تقدر بالمليارات للاستثمار في قطاع فضائي أوروبي موحد.

القمة وحدها لا تكفي لإنجاح آمال الرئيس الفرنسي، بل تحتاج إلى قوانين وتشريعات أوروبية وإرادة متكاملة لترجمة طموحات ماكرون بوجود أوروبا قوية وموحدة وقادرة على منافسة الكبار.

○ كاتب من فلسطين

ثق بنفسك.. أنت أقوى مما تظن

قد تدخل إلى مكان ما وأنت تعرف أنكَ لست أكثر الحاضرين خبرة، ولا أكثرهم حظًا، وربما لا تملك الإجابة عن كل سؤال. ومع ذلك تجلس بهدوء، وتتكلم حين تجد ما يستحق أن يقال، وتصمت حين لا تجد ما يضيفه الكلام. تلك واحدةٌ من علامات الثقة بالنفس التي يصعب تعليمها في الكتب، لأنها تنشأ من علاقة طويلة بين الشخص ونفسه.

بقلم:

سعدية مفرح

الثقة بالنفس تبدأ من لحظة يدرك فيها المرء أنه يستطيع أن يعيش من دون أن يقيس قيمته كل صباح بردود الآخرين. قد يسمع نقداً فيتأمله، وقد يخطئ فيعترف بخطئه، وقد يخسر فرصة فيحزن عليها، ثم يمضي. يعرف أن تجربة واحدة لا تختصر سيرته، وأن رأياً عابراً لا يملك حقّ إصدار الحكم النهائي عليه.

ولعل أجمل ما تمنحه الثقة بالنفس أنها تجعل صاحبها أقل خوفا من التجربة، فالذي يثق بقدرته على النهوض يستطيع أن يبدأ، حتى وهو يعرف احتمال التعثر.

يكتب مقاله الأول، ويصدر كتابه، ويذهب إلى مقابلة العمل، ويقف أمام جمهور للمرّة الأولى، ويقول رأيه في غرفة اعتادت الصمت. قد ترتجف يده، وقد يخونه صوته لحظة، لكنه يكمل. الثقة هنا ليست غياب الخوف، وإنما القدرة على ألا يمنح الخوف حق اتخاذ القرار.

وأحياناً تتشكّل هذه الثقة من خسارات قديمة. شخص تعرض للسخرية لأنه حلم أكبر من المحيطين به، أو قيل له إن ما يكتبه لا يستحق، أو فشل في مشروع كان يظنه بداية جديدة. تمر السنوات، ثم يكتشف أن بعض تلك الأحكام لم تكن سوى آراء أصحابها، وأن الفشل الذي أوجعه ذات يوم كان جزءاً من الطريق الذي أوصله إلى مكان أكثر نضجا.

الثقة الحقيقية تسمح لك بأن ترى عيوبك من دون أن تتحوّل رؤيتك لها إلى كراهية نفسك. تستطيع أن تقول: أخطأت. تستطيع أن تقول: لا أعرف. تستطيع أن تتعلم من شخص أصغر منك، وأن تغير رأيك حين تكتشف أنك كنت مخطئاً. وهذه علامات قوة داخلية، لأن صاحبها لا يحتاج إلى حماية صورة متخيلة عن نفسه. وأصعب امتحانات الثقة بالنفس تأتي حين يختار الإنسان طريقاً لا يفهمه الآخرون. قد يصبح شرح اختياراتك مرهقاً، وتتحوّل كثرة التبرير إلى عبء. عندها تحتاج أن تكون متصالحاً مع السبب الذي دفعك إلى اختيارك. قد يخطئ اختيارك، وهذا وارد، لكنك تتعلم من خطئك، وتعود إلى نفسك لتقرّر من جديد.

والثقة بالنفس لا تعني أن ترى نفسك فوق الآخرين. كلما استقرّت قيمة الشخص داخله، قل احتياجه إلى التقليل من قيمة غيره. من يعرف مكانه لا يحتاج إلى إزاحة أحد كي يجد لنفسه مقعداً، ومن يعرف قدرته يستطيع أن يفرح بنجاح شخص آخر من دون أن يشعر أن نجاحه ينتقص منه.

وربما لا تحتاج الثقة بالنفس إلى خطاب كبير. تحتاج إلى ممارسة يومية: أن تحترم وعدك نفسك، وأن تنجز ما تستطيع، وأن تتعلم حين تخفق، وأن تتوقف عن مطاردة قبول الجميع. وحين تتصالح مع قيمتك، تصبح الصعوبات أكثر قابلية للاحتمال، لأنك تدخل إليها وأنت تعرف أن ما يحدث لك لا يساوي كل ما أنت عليه.

قد تخسر عملاً، أو علاقة، أو فرصة، وقد يتأخّر عليك شيء انتظرته طويلاً. ستتألم، وهذا طبيعي. ثم تستعيد توازنك وتفكر في الخطوة التالية. تلك هي القوة التي تستحق أن نسميها ثقة بالنفس: أن تعرف أن حياتك أوسع من خسارة واحدة، وأن قيمتك لا ترتفع مع المديح ولا تهبط مع النقد، وأن لديك دائماً مساحة داخلية تستطيع أن تعود إليها حين تضيق الطرق.

ومن يعرف كيف يعود إلى نفسه، يصعب أن تضيع منه الطريق طويلاً.